قصة للدكتور محجوب عمر

البلح الأحمر



سلسلة **الأفق الجديد**

قصة د. محجوب عمر

رسوم بهجت عثمان

البلح الأحمر



الطبعة الأولى ، ١٩٧٥

الطبعة الثانية ، ١٩٧٧

الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠

الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥

دار الفتى العربي

من قديم الزمان ، كانت فِلَسْطينُ على الدّوام تستقبلُ التجّارَ والزائرين والحُجَّاجَ . فأرضُها الغنيّة بالمحصولات كانت تشدُّ أنظارَ التجارِ ، وطبيعتها الجميلة المتنوعة تَجْذِبُ الزائرين ، وإلى أماكِنها المقدّسةِ يَحُجُّ الناسُ من كلِّ الأديان .

لم تكن وسائلُ المواصلاتِ سهلةً ، لم يكنِ الناسُ قد عرفوا في ذلك الوقتِ الطائراتِ والقاطراتِ والسيارات . وإنما كانوا يسافرون برًّا على الجِمال ، وبحراً بالمراكب ذاتِ الشراع . وقد ساعد موقعُ فلسطين التي تتوسَّطُ القاراتِ الثلاثَ على سهولة السفر إليها والانتقال منها ، فهي مُتَّصلةٌ بآسية وافريقية عن طريق البرّ ، كما يُمثِّل البحرُ الأبيضُ المتوسّطُ الذي يُشَكِّلُ حدودَها الغربيةَ كلَّها طريقاً مفتوحاً بينها وبين أوروبة وأفريقية .

ويُعَدُّ ساحلُ فلسطين من أجملِ السواحل الشرقية على البحر الأبيض المتوسط ، فهو يكادُ يكونُ مستقيماً مُنبسطاً ، لذا تعدّدَتِ موانئه الكبيرةُ المشهورةُ ، مثل عكا وحيفا في الشمال ، ويافا في الوسط ، وغزة في الجنوب .

كان من السَّهْلِ على التجار القادمين في مراكبهم من شمال افريقية ، أنْ يتّخذوا من ميناء غزة مكاناً يجدّدون فيه أشرعتهم ، ويتزودون منه بالماء والطعام ، وينقلون إليه تجارتهم ، ويشترون منه بضائعهم .

في ذلك الوقت كانت بجوار ميناء غزة ، مِنْطَقَةٌ سهلية منبسطة تغطِّيها أشجارُ النخيلِ العالية ، ويقيم تحتها أهلُ قريةٍ لمْ يَعُدْ أحدٌ يذكر اسمَها القديم ، وإنْ كان اسمُها الحاليّ هو « دير البلح » .

كان البحّارة يتخذون من منظر النخيل علامةً يَرْسَون بجوارها ، وكانت القريةُ الصغيرةُ تبدو أكثرَ العام وكأنّها ترتدي عمامةً خضراءَ كبيرةً ، أما في إبّانِ نُضْجِ البلح فانّها تبدو وكأنّها ترتدي قُبَّةً ذهبيةً ، ندر أنْ يكونَ لها مثيلٌ لِكَثْرَةِ ما تحملُ أشجار النخيل من بلحٍ أصفرَ .

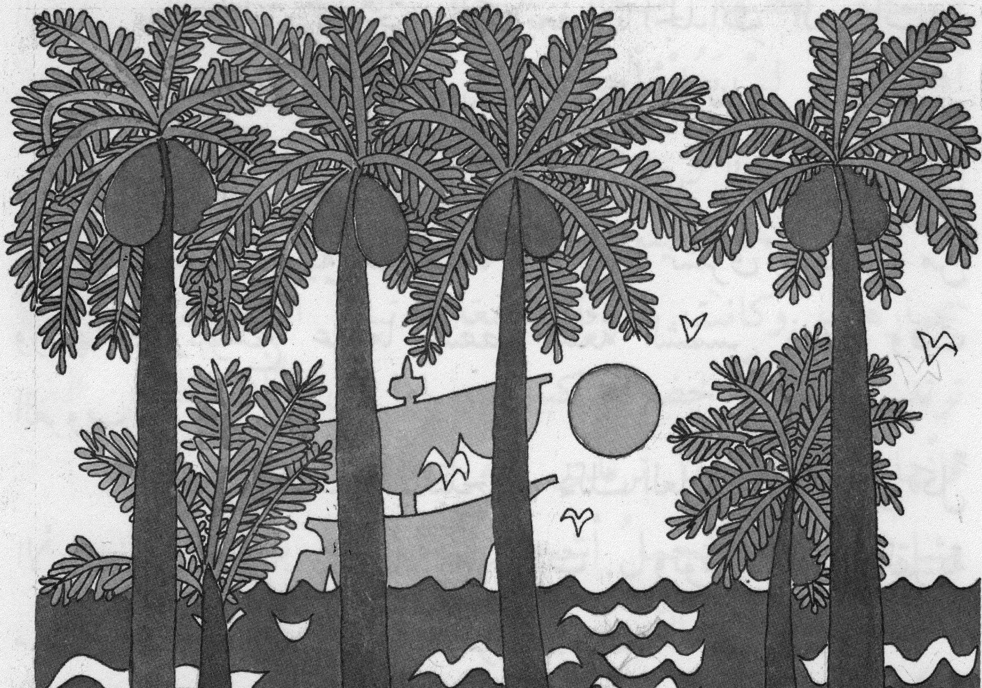
عاش أهلُ القرية في سلام وأمان عشراتِ السنين ، يُقدِّمونَ الخَدَماتِ لسفنِ التجّار طَوَالَ العام . أما في موسم البلح ، فانّهم كانوا يُقيمون الحفلاتِ والأعراسَ ، ويَدعون

لها أهلَ القرى المجاورة ، فتتحوّلُ القريةُ الى سوقٍ كبيرةٍ طوالَ النهار، وساحاتٍ للرقص والغناء وإلقاء الشعر في الليل .

واستمرَّ الحالُ على هذا المنوال سنينَ طوالاً . حتى كان عامٌ لم يمضِ كبقية الأعوام ، وما زالت تَحكي قصَّتَهُ الكتبُ والرواياتُ ، حتى إن بعض الجدَّاتِ المُسِنَّاتِ ، يُؤكدّنَ أنّه في ذلك العامِ لم يستطع أحدٌ أن ينام .

جاء أوانَ نُضْجِ البلح ، وغيَّرتِ القريةُ عمامَتها الخضراءَ بُقبّةٍ ذهبيةٍ صفراءَ ، تلمعُ إذ تُشْرِقُ الشمس من ورائها ، وتتوهّجُ عندما تسقطُ أشعّةُ الشمس فوقها وقتَ الغروب .

كان النخيلُ مُحَمَّلاً بالبلح في ذلك العامِ ، أكثَرَ من كلِّ الأعوام . هكذا تؤكّدُ الحكايات . وتَوقَّعَ أهلُ القرية موسماً مليئاً بالبهجة والأفراح .



ذاتَ صباح رأى أهلُ القرية عمارةً كبيرةً من السفن تَلُوحُ في الأفق . أخذ أصحابُ القواربِ الصغيرة يستعدّونَ لاستقبالها ، وسارعَ التُّجارُ إلى متاجِرهم يتوقعون الزبائنَ والزوار. ولكنَّ الشمسَ توسّطَتِ السماءَ ولم تَتَقدمِ المراكبُ نحو القرية .. وتعَجَّبَ أهلُ القرية ، وتوقَّع ذوو الخبرة منهم أنْ تكونَ عمارة المراكبِ لتجّارٍ كبار ، قَدِمُوا من بعيد ، وأنهم توقفوا ليفتحوا صناديقَ بضائعهم قبل أن ترسوَ مراكبهم . وأبدى نفرٌ قليلٌ من أهل القرية ملاحظةً هامة : « المراكبُ الواقفةُ عند الأفقِ لا ترفعُ أعلاماً تدُلُّ على هُوِيّاتها كما هو مُتَّبَعٌ في البحار. »

ضاعتْ ملاحظتهم في غَمرةِ أفراح موسِم البلح ، وتوقّعِ وصولِ المراكبِ ببضائعَ ثمينةٍ نادرةٍ وزوارٍ كثيرين . ولكنّ أهلَ القريةِ جميعاً تذكروا تلك الملاحظة قبل أنْ يمضيَ وقتٌ طويلٌ ، وندموا لأنهم لم يهتموا لها .

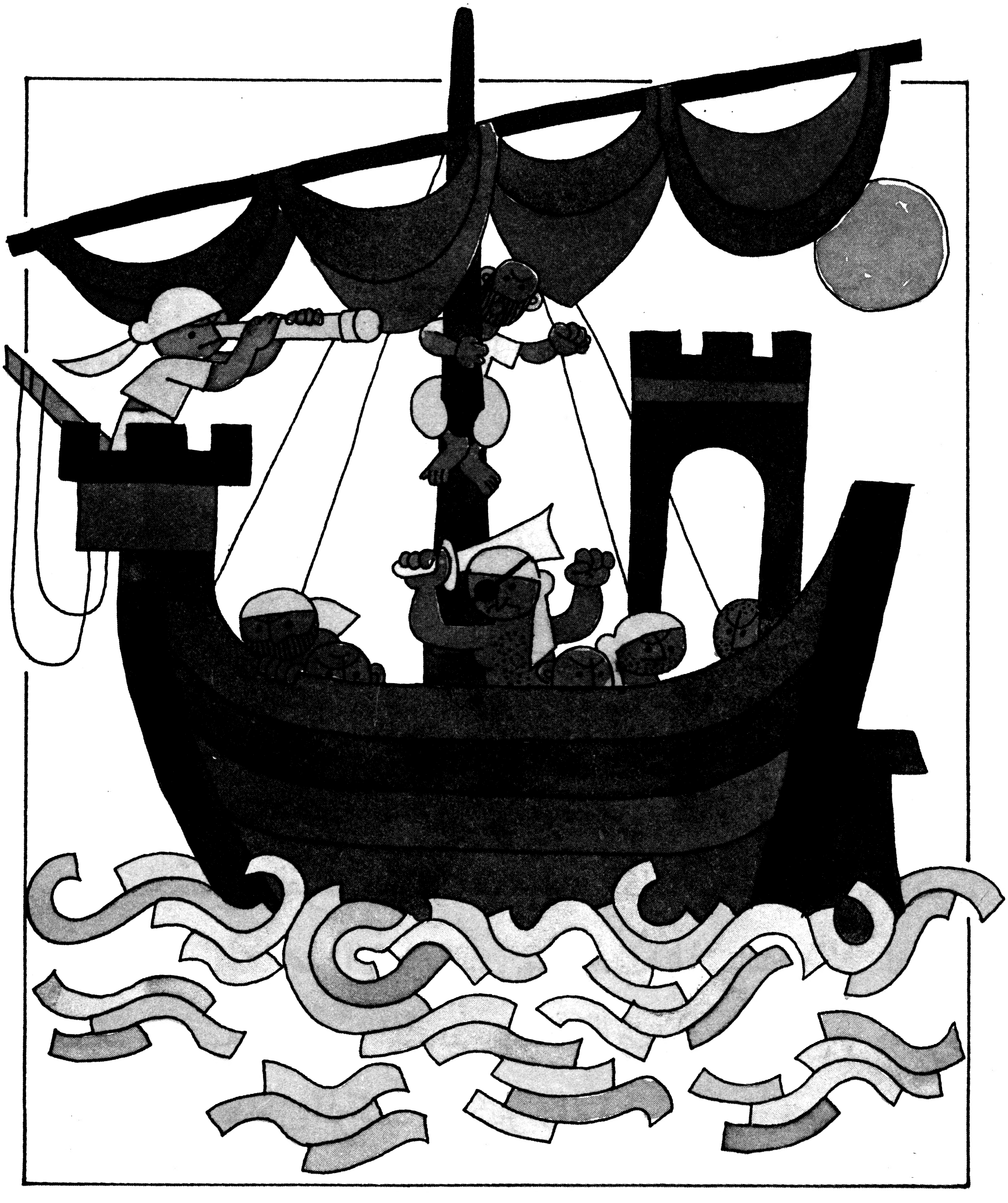
على سطح أكبر المراكبِ جلستْ مجموعةٌ من الرجال حول بحّارٍ ذي عينٍ واحدة ، بدا أنه زعيمهم . قال الرجل ذو العين الواحدة :

« رآها الملّاحُ الواقفُ على دكّة المراقبة وناداني ، فصعدت ورأيتها بعيني هذه ، وها أنتم رأيتموها أيضاً . قُبَّةٌ من ذهب ، نعم ، قُبَّةٌ من ذهب ؛ لا بدَّ أنَّ تحتها كنوزاً تملأُ كلَّ مراكبنا وتزيد ، فما رأْيُكُم ؟ هل نتركُ هذه الثروةَ ونمضي في طريقنا ، أو نستولي عليها ونحملها في مراكبنا ؟ »

فصاح الجالسون جميعاً : « لا بدَّ من الحصولِ عليها ؛ القبة الذهبية لنا ، القبة الذهبية لنا ، القبة لنا والكنوز للرجال ، القبّة لمن يستولي عليها . »

وراح البحارةُ يتصايحون : مظهرُهم ليس كالبحارةِ العاديين ، ملابسُهُم خليطٌ من الألوان ، وجوهُهم متنوعة السِمَاتِ ، حتى حديثُهُم كان مُتعَدِّدَ اللغات .

وكادوا يتشاجرون فيما بينهم فصرخ الرجل ذو العين



الواحدة : « الصَّمْتَ ، لا تتعاركوا قبل الأوان ، سَنُطَبِّقُ تقاليدَ القراصنة كما اعتدنا ، هيّا أعدّوا قارباً ومجموعةً من الرجال ، سنطلبُ من أهل القرية أن يسلموا القبة قبل الغروب وإلا فسيعرفون من هم قراصنةُ البحار. »

كانت هذه المراكب ، هي مراكبَ القراصنة الذين تعوّدُوا سَرِقَةَ مراكبِ التجار في قلب البحار، ينفردون بمركبٍ مُحَمَّلٍ بالبضائع ، ويذبحون مَنْ فوقهِ منْ بحّارةٍ وتجار، وينهبون ما يحمل من بضائعَ وأموال ، ثم يُغْرِقُونَ المركبَ حتى لا تتبيّن لهم آثار. وعندما شاهدوا البلحَ الأصفرَ من بعيد ، ولاحظوا حَلَقاتِ التَجار تحت ظلالِ النخيل ، كان ما كان من أمر اجتماعهم وقرارِهم بالاستيلاءِ على ما ظنوه قبةً من ذهبٍ ، وما توقّعوه من كنوزٍ تُثيرُ العَجَب .

تحمّسَ القراصنةُ وتدافعوا ، كلٌّ يحاولُ أنْ يكونَ من بين المجموعة الأولى التي ستذهبُ إلى الشاطىء تطلب القبة الذهبية . وتَمَّ إعْدادُ قاربٍ صغيرٍ بسرعة ، وأُنْزِلَ من على سَطْحِ المركب الكبير ، وفيه خمسةٌ من القراصنة

على رأسِهم قرصانٌ عُرِفَتْ عنه القسوة والوحشيَة : صوته أجّشّ ، ووجهه قبيحٌ ، وفي إحدى يديه سَوْطٌ وفي الأخرى سِكّينٌ كبيرة .

واندفع القراصنةُ يجدّفون نحو الشاطىء في حماسة .

شاهد أهلُ القرية من بعيد إنزالَ القاربِ الصغير واندفاعَهُ نحوهم ، فازداد تجمّعهم في انتظار وصوله ، بعد أن زادت لهفتهم لمعرفة الأخبار ، وعَظُم قلقهم بعد طولِ الانتظار .

عندما اقترب قاربُ القراصنة من الشاطىء ، وشاهد الرسولُ ورفقاؤه الناسَ متجمّعين في انتظارهم أخرجوا سكاكينهم ، وتحفّزوا لمواجهتهم ظنًّا منهم أنهم تجمّعوا لقتالِهم .

دُهِشَ المنتظرون من مسلك القراصنة ، وتوقّعوا منهم الشرَّ ، فانسحب عددٌ منهم ليبلِّغَ سائرَ أهلِ القرية ، وقابلهُم من تبقى على الشاطىء بحذر .

نزل رسولُ القرصانِ إلى البرِّ ، وصاح في أهل القرية :

« سلِّموا القبة الذهبية لزعيم القراصنة وإلا هدمنا قريتكم فوق رؤوسكم . »

تعجَّبَ أهلُ القرية ولم يعرفوا عن أيّ قبة يتحدث . وعندما كَرَّر صياحهُ وهو يُشيرُ نحو البلحِ الأصفرِ فوق رؤوس النخلِ ، ضحك بعضهم ، وصاح بعضهم استنكاراً ، وقال واحدٌ منهم : « هذا بلحُنا الأصفرُ ، ونحن نعيشُ بثمنه بعد بيعه . »

قال رسولُ القرصان : « بلحٌ أو ذهب ، سلِّموه فوراً . »

لَوَّحَ القرصانُ بسكينه مهدِّداً ، وتقدّم خُطوةً إلى الأمام ، ولكنّه فُوجِىءَ بالحجارةِ تنهالُ عليه وعلى رفاقه . كان شبان القرية قد تجمّعوا من بعيدٍ وبدأوا يقذفون القُرصانَ ومَنْ معه بالحجارة . استدارَ القرصانُ مُسْرِعاً واندفع نحو القارب وهو يَسُبُّ ويهدِّدُ : « سنهدِمُ القريةَ فوق رؤوسكم ، ستندمون على فعلتكم . » وانطلق بقاربه نحو السفينة الواقعة في عرض البحر .



تجمَّعَ أهلُ القرية جماعاتٍ تحت أشجارِ النخيل . كان الحديثُ يدورُ عن إنذار القراصنة وكان بعضُ الناس يحكي ما سمعه من حكاياتٍ وروايات عن النَّهْبِ والسَّلب الذي يقومون به ، وآخرون يتحدثون مسرورين عن فَزَعِ القراصنة وهربهم .

ثم أخذتِ الجماعاتُ تنضمُّ بعضها إلى بعض ، فشكلت حَلْقةً كبيرةً اجتمع فيها الشيوخُ والشبابُ والنساءُ والأطفالُ . وبدأ الحديثُ عمّا حدث ، وحَذَّرَ الشيوخُ من انتقام القراصنة ، واتفق الجميعُ على ضرورة التأهّب لهم وحمايةِ القرية من بطشهم ونهبهم .

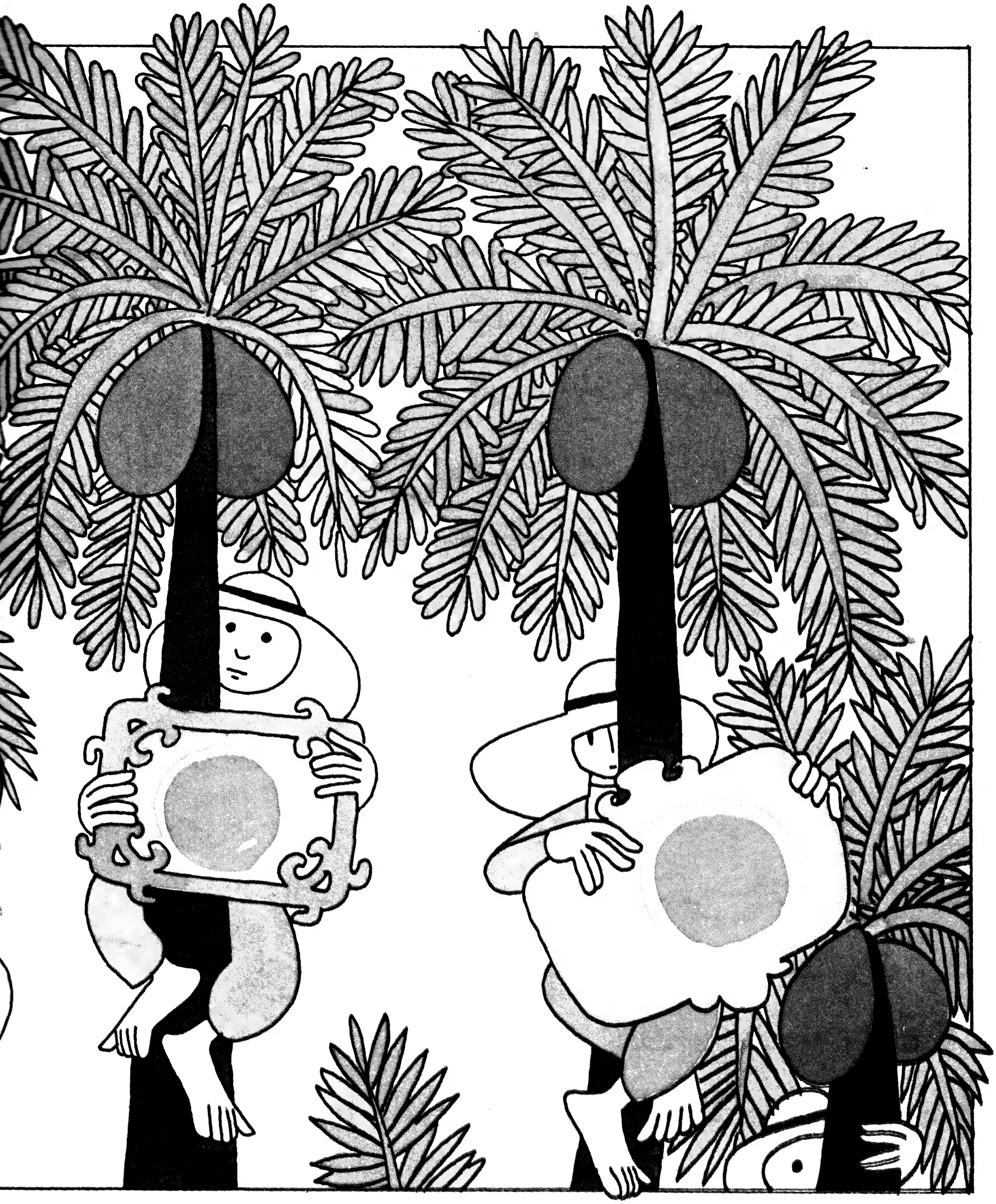
تَوزعَ الشبان في مجموعات ، بدأت تُعِدُّ من جريد النخل عِصِيًّا تُقاتِلُ بها ، وتَحْفِرُ الحُفَرَ والخنادقَ لكي تُعَوِّقَ تَقدُّمَ القراصنة . وبدأ الصغارُ يُعِدُّون جريداً مُدبَّباً يَغْرِسُونَهُ على الشاطىء تحت سَطْحِ الماء ليُدميَ أقدامَ القراصنة إنْ مَشَوا عليه ، في حينِ أخذَ فريقٌ مِنَ الشيوخ يجمعُ الأشياءَ الثمينةَ ويُخَبِّئُها حتّى لا يَعْثُرَ عليها القراصنةُ

إنْ هم نجحوا في اختراق الحواجزِ الدفاعيَة .

وأثناءَ ذلك كان شيوخ القرية يطوفون بالجماعات والفِرَق يشجعونها ويحدِّثونها عن التعاون والتضامُن والإقْدَام والشجاعةِ وضَرورة الصمود .. وسَرعانَ ما عَلَت الأناشيدُ وعمَّ الجميعَ حماسةٌ جديدة .

قبل شروق الشمس ، أبلغ الحُرّاسُ أهلَ القرية أنَّ سُفُنَ القراصنة بدأتْ تقترب من الشاطئ . نهض الجميعُ من نومهم ، وصحب المسنّون الأطفالَ ، وانطلقوا بهم إلى خارج القرية حيث يوجد بعضُ الآبار ، وحيث وُضِعَتْ كميات الخبز والطعام ، استعداداً لهذا الصِّدام ، وزحف القادرون رجالاً ونساءً بالعِصِيّ والسكاكين الكبيرةِ نحو الشاطىء واختبأوا في الخنادق ، واستعدَّ الجميع .

عند الشروق بدأت مدافعُ سفنِ القرصان تَقْصِف القريةَ . فَزِعَ الأطفال ، ودَبَّ الخوفُ في بعضَ القلوب ، إذ لم تكُنْ رأت أو سمعت مثلَ ذلك من قبل . ولكنَّهم مع مرور الوقت اعتادوا صوت القذائف وأخذوا يحاولون





تتبعَ مسارِها وآثارها . وخرج بعض الناس من مخبأه ، ليطمئنَّ على دارِه أو نخيله ، فجرحَتْهُم القذائفُ ، فزَحَفتْ إليهم على الفور فِرَقةٌ من الشابات يَحْمِلْنَ لُفَافات الإسعاف والنقّالات ، ونقلن الجرحى إلى أما كنَ أمينةٍ أُعِدَّتْ في الليلة السابقة .

كان زعيمُ القراصنة قد قرّر أن يُواليَ القصفَ يوماً كاملاً ، حتى يُهدِّمُ جزءاً من القرية ، ويُخيفَ من يبقَى حيًّا ، فَيَسْهُلَ عليه الهجومُ والانقضاضُ . وهكذا ظلّت مدَافعهُ تَقْصِفُ إلى ما قبل غروبِ الشمس بقليل ؛ عندئذ أمر بعضَ رجاله بالتقدُّمِ نحوَ الشاطىء في قواربَ صغيرةٍ لاقتحامِ القرية . فاذَا تمَّ لهم ذلك ، أطلقوا الإشاراتِ للباقين . ولكن أحداً من هؤلاء لم يعُدْ حيًّا ، فقد استقبلهُم شبّان القرية بالعصيّ والسَكاكين على نحوٍ مُباغتٍ ، ومَنْ قَفَزَ منهُم في الماء انغرسَتْ في قدميه عصيّ الجريد المُدبَّب فلم يستطعْ أنْ يتحرّكَ خُطوة واحدة ، وغرق مكانه . ومرَّ اليومُ الأولُ وقد أخفق القراصنةُ في اقتحام القرية .

انقضى الليل وأهلُ القرية يستعدّون في حماسةٍ ونشاط : شارك الجميعُ في الحَفْرِ والتَحْصِين وجَمْعِ الموجودِ من الطعام ، وسلم إلى لَجْنَةٍ مُختصّة تشرف على التّدبير والتّوزيع ، لتضمَنَ توفّره إذا استمرَّ القتال . وأُعيد تنظيم القادرين من نساء ورجال ، وتوزعوا مجموعاتٍ في الخنادق على الشاطىء وحول القرية من كلِّ اتجاه . وكُلِّفَ الصغار بمُهمّة نَقْل الأوامر والأخبار ، وتوزيع الماء والطعام على المواقع أثناءَ النهار ، ومُراقبةِ أطرافِ القرية حتى لا يُفاجأَ أهلُها بخديعةٍ او التفاف .

عند فجرِ اليوم التالي ، بدأ القراصنةُ في قَصْف القرية ؛ تكرر ما حدث في اليوم السابق ، إلا أنّه عند الغروبِ لمْ يأت القراصنة في قواربِهم خوفاً من هزيمة أخرى وتَحَسُّباً لكلِّ احتمال .

كان زعيمُ القراصنة قد قرّر أنْ يستمر قصفُ القرية حتى يستسلمَ أهلها . وتكرر القصفُ في اليوم الثالث واليوم الرابع . واشتعلتِ الحرائقُ هنا وهناك ، وتهدَّمت البيوت ،

وسقط على الأرضِ نخيلٌ كثير. واستشهد عددٌ من الرجال والنساء والأطفال ، عدا مَنْ جُرح وأسعف ونُقِلَ في الليل إلى قُرىً مجاورة . وبدأ البعضُ يتساءل : « إلى متى نستطيعُ الصمود ؟ »

في المساء اجتمع أهلُ القرية ؛ كانت علاماتُ الإرهاق باديةً على الوجوه ، والقلقُ على المصيرِ ، سؤالٌ يلحُّ على الكبيرِ والصغير.

بدأ شيخُ القرية الاجتماعَ بذكرِ الشُهداء والترحُّمِ عليهم ، ثم سأل الحاضرين عن رأيهم فيما يجب عمله ؟

تعددتِ الآراءُ ، واقترح البعض أن يفاوضوا القراصنة ، ولكنَّ اقتراحَهُمْ رُفِضَ على الفور ، فالتفاوضُ مع القراصنة معناهُ التسليمُ بجزءٍ مما يطلبُونه . واقترحَ البعضُ أن يَهْجُرَ القريةَ إلى القرى المجاورة ، ولكنّ اقتراحهم رُفِضَ على الفور أيضاً ، فالرحيلُ معناهُ تسليمُ القريةِ إلى القراصنة .

ثم ساد رأيُ القائلين بوجوب الصمود والمقاومة ، وبدأ سكّانُ القريةِ يبحثون في الوسائل والسُّبُلِ التي تهزمُ

القراصنةَ وتردُّ هجماتِهم .

عندئذ قال شابٌ من شبّان القرية : « لقد لاحظتُ أنَّ إصاباتِ القذائفِ لا تكونُ دقيقةً إلا بعد الظهر ، وهذا معناه أنَّ القراصنة لا يستطيعونَ التصويبَ بدقةٍ ما دامتِ الشمسُ تُعْمِي عيونهم منذ الشروق حتى الظّهيرة ، فلو أنّنا استطعنا أن نجعلهم عاجزين عن الرؤية لطاشتْ كلُّ قذائفهم . »

فسأله واحد من الجالسين : « وكيف السبيلُ إلى ذلك ؟ »

قال الشاب : « الأَمرُ بسيطٌ . لنأتِ بكلِّ المرايا الموجودةِ لدينا ، وليصعدْ كلٌّ منّا إلى أعلى نخلةٍ ويعكِس الشمسَ بعد الظهر إلى عيون القراصنة . لو أننا جَنَّدنَا عددا كبيرا من الشبان لهذه المُهمَّةِ ، واستخدمَنا كلَّ ما لدينا مِنْ مرايا ، لاستطعنا أن نُعْمي عيونهم فعلاً . » تحمَّسَ الحاضرون للفكرة ، وانقضى الاجتماع بعد أن حدَّدَ شيخُ القرية أسماءَ الشبان الذين تَطّوعُوا للصعود فوق النخل ، وانطلقت النِّسْوَةُ يُحْضِرْنَ المرايا من بيوتهن ، واشتدَّ حماسُ الجميعِ

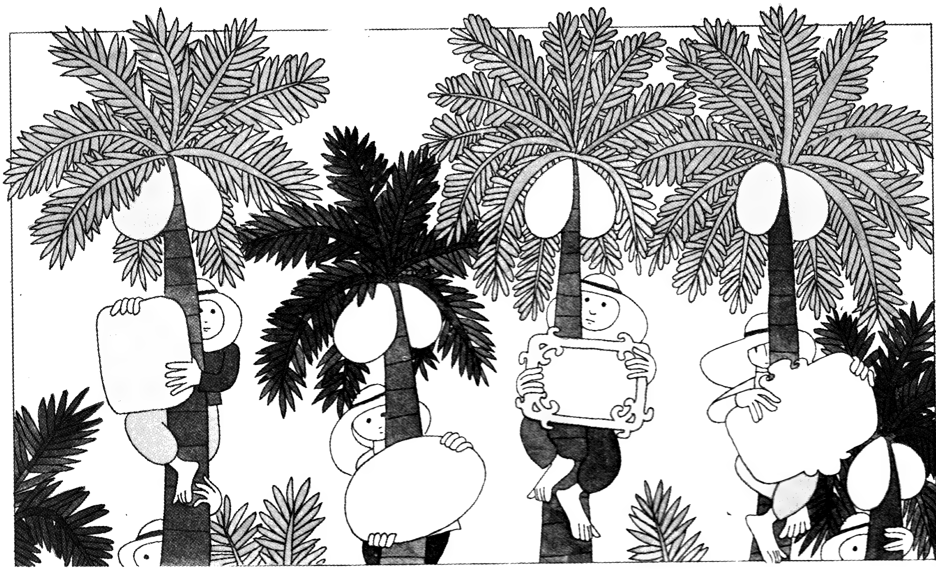
عندما شاهدوا عجوزاً كانوا يُلقّبونها « جَدَّة القرية » وهي تأتي بمرآةٍ كبيرةٍ من بيتِها ، قالتْ إنَهَا تحتفظُ بها منذ أكثرَ من خمسين عاماً يوم كانت عروساً .

استؤنِفَ القصفُ عند شروق شمس اليوم الخامس . كان القراصنةُ قد أدركوا هم أيضاً أنَّ قذائفَهمْ في الصباح لا تُصيبُ أهدافَها بدقَّة ، ولذا اقتصدوا في ذخائرهم ، مركِّزينَ قصفَهُمْ بعد الظهر ، أي عندما تُصْبِحُ الشمسُ خلفَ ظهورهم . ولكنهم في هذا اليوم فوجئوا مفاجأة أخرى .

قبل أن ينتصفَ النهار بقليلٍ ، تسلَّقَ النخيلَ عددٌ من شبان القريةِ يحملُ كلّ منهم مرآةً في يده ، وأخرى على ظهره ، حتى إذا انكسرتْ واحدةٌ حلّت الثانية محلَّها .

كانت الخطّةُ أن يبدأوا في عَكْس أشعّة الشمس عندما يُعطيهم شيخُ القرية إشارةً لذلك ، حتى يعملَ الجميعُ في وقت واحد فيفاجئون القراصنة .

أما على مراكب القراصنة فقد كانوا يستعدّون لفترةِ



ما بعد الظهر. وكرّر زعيمهم ذو العينِ الواحدةِ أوامرَه بأن يدكّوا البيوتَ بيتاً بيتاً . وأن يبتعدوا عن القبة الذهبية حتى لا تصيبها القذائف . ووقف بنفسه على مدفع مركبه ، وأمر الباقين على كافة المراكب أنْ ينتظروا أولَ طلقة يطلقها كي يبدأوا هم الإطلاقَ جميعاً في الوقت نفسه .

وانتظر زعيمُ القراصنة حتى استدار ظل الصّاري فأصبح ناحيةَ الشرقِ مُشِيراً الى تَحوُّل الشمسِ عن منتصف السماءِ في اتجاهها نحو الغرب .

فالتفت ناحيةَ الشاطىء لِيُطْلِقَ مدفعَهُ على هدفٍ

يختارُهُ ، فإذا به لا يتمكّنُ من رؤيَةِ شيءٍ لا هو ولا معاونوه .

كانت هناك شمس ثانية فوق النخيل بدت كأنها مئات من الشموسِ الصغيرة فوق الشجر ، تُلْقي بأشعَّتها الساطعةِ في عيونهم فتعميها .

فقد زعيمُ القراصنة صوابَه ، وظهر عليه الغضبُ الشديدُ ، وأمر رجالَهُ بأن يتوقّفوا عن القَصْفِ حتى يتبيَّنَ سرَّ هذه الشمسِ الثانية . جمع معاونيه الذين أبلغوه أنَّ الخوف واليأس بدءا يدبّان في قلوبِ القراصنة فوق كلّ المراكب ، وتشاوروا فيما يجب عليهم أن يفعلوه . واتفقوا على أنْ يذهب واحد من القراصنة الأشدّاء سابحاً الى الشاطىء شمال القرية ، ومن هناك يتسلّلُ إلى حيث يتجسس على أحاديثِ سكانها ، ليعرفَ سرَّ ما حدث ويعودَ مرة أخرى .

اختار زعيمُ القراصنة قرصاناً عُرِفَ بمهارته في السباحة ، ووعده بمكافأةٍ كبيرةٍ إن هو عاد بالسرّ قبل الفجر .

نجح القرصان الجاسوس في الوصول إلى أَطرافِ

القرية ، وساعده أنَّ الحرّاسَ كانوا قد تركوا مواقعهم ، وانضمّوا إلى أهلِ القرية الذين تجمعوا في ساحتِها فرحين مسرورين بنجاحِ خطتّهم ، يهنىء بعضهم بعضاً ، ويتفاءلون بقرب هزيمةِ القراصنة . وعبثاً حاول شيخُ القرية أنْ ينبههم إلى ضرورة الحذر واليقظة ، وإلى خَطَرِ الحديثِ بصوتٍ عالٍ عما فعلوه . غرّهم انتصارُ اليوم فتهاونوا في الاستعداد للغد ..

وسمع القرصانُ كلَّ ما قالوه ، وعرف سرَّ الخطة وانطلق سابحاً مرةً أخرى نحو سفينة زعيم القراصنة فكافأه هذا بسكّين حادةٍ واعداً إيّاه بنصيبٍ أكبرَ من القبة الذهبية .

فكر زعيمُ القراصنة في خطّةٍ يواجهُ بها خطة أهلِ القرية ، ثم جمع رجاله ووزّع عليهم بنادقَ خاصةً بعيدةَ المدى ، وقال لهم : « غداً عندما يبدأ هؤلاء الملاعينُ في تصويب مراياهم ضدَّنا نبدأُ في قَصْفِهِم ؛ صَوِّبُوا بدقةٍ نحو الشموسِ الصغيرةِ التي تَلْمَعُ فوق النخيل ، فخلفَ

كلِّ شمسٍ صغيرة شاب من شبان هذه القريةِ ، فإن قَضَيْنا عليهم سهل علينا بعد ذلك الحصولُ على القبة الذهبية . »

بدأ اليومُ التالي بالقصفِ المُعتاد ، وعند الظُّهر صعد شبان القرية الى أعلى النخيل ، وبدأوا يَعْكِسُونَ الشمسَ في عيونِ القراصنة . عندئذٍ بدأ القنّاصةُ من فوقِ المراكب يطلقون النارَ عليهم . أُصيبَ بعضُ الشبان فأسرع الموجودون أسفلَ النخيل بالصعود وحلّوا محلَّ المصابين من إخوانهم . كانْ كلّما أُصِيبَ شابٌّ حلَّ محلَّه شابٌّ آخرُ على الفور . وزادتِ الخسائرُ بين الشبان ، ولكنّهم استمروا في الصّعود . وتجمّع أهلُ القريةِ جماعاتٍ ينقلون الجَرْحَى ويُنْشِدون أناشيدَ الصّمود ، وبدأ الفتيانُ يتسلّقونَ النخيلَ ، ليحُلَّ كلُّ واحدٍ منهم مكانَ شاب مُصاب أو شهيدٍ . وتجوّلَ الشيوخ يشدّونَ العزائمَ ويواسون المصابين ، حتى حلَّ الغروب وتوقَّفَ القصف . ونزل عن النخيل مَنْ بقي حيًّا ، وأُنزل من كان مصاباً ، أما الذين استشهدوا فقد دُفِنُوا تحت

النخيلِ فور إنزالهِم .

خلالَ ساعات المعركة سالتْ دماءُ المصابين والشُّهداء فوقَ البلحِ الأصفرِ فلوّنته ، وَصَبَغَتْ رؤوسَ النخيلِ باللونِ الأحمرِ .

كانتْ خسائرُ القرية في تلك المعركةِ أكبرَ الخسائرِ ، وفي المساءِ اجتمع أهلُها يتساءلونَ : « إلى متى يُمكِنُنا أَنْ نَصْمُدَ وأنْ نستمرَّ ؟ » كان القلقُ يعمُّ الجميعَ ، فالقراصنةُ مُصمّمونَ على إخضاع القرية وأهلها ، والإصاباتُ والخسائرُ زادت كثيراً ، فما العملُ ؟ .

قال شاب : « لا بُدَّ أن نَنْتَقِلَ إلى الهجوم . إنَّ القراصنة لن يَتْرُكوا القريةَ ما لمْ تُدَمَّرْ سُفُنُهمْ . »

وقال آخر : « إنَّ القراصنةَ لن يستطيعوا البقاءَ طويلاً في عُرْضِ البحر ، وسيحاولون الهجوم علينا ، لذا يجب أن نبدأَ بالهجوم . »

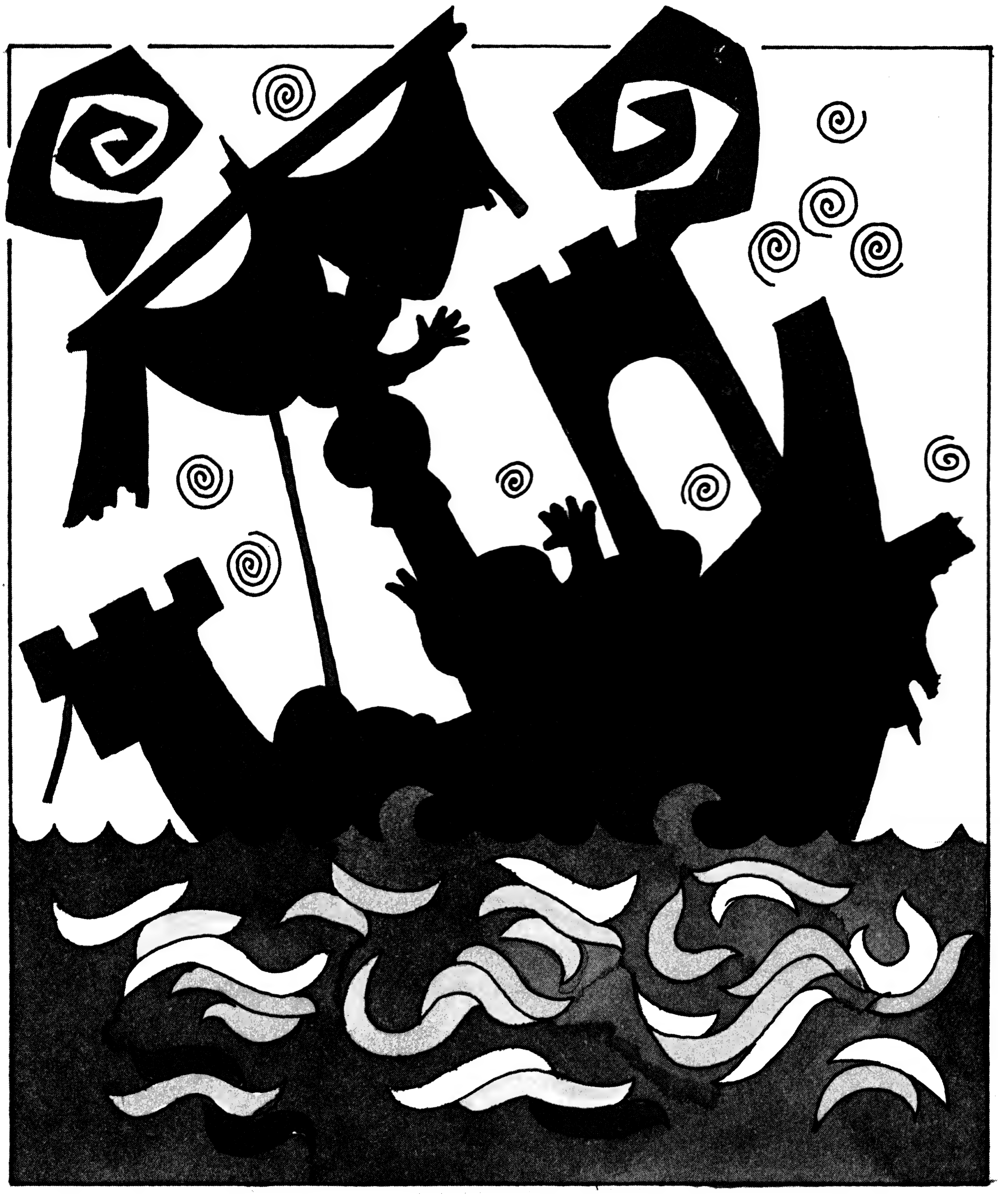
فقال شيخ القرية : نعم ، نعم ، هذا صحيحٌ ، ولكنْ كيف يُمْكِنُ أنْ نهاجمَ والسفنُ في عُرْضِ البحر؟ »

قالَ الشابُّ الأول : « القذائفُ اقتلعت لنا بعضَ أشجارِ النخيل ، فلنجمعها بالحبال ونصنع منها طَوَّافَةً وننطلقْ بها . وهناك نَحْرِقُ السُفُنَ . »

ودار حديثٌ هامسٌ بين الحاضرين ، واتفقوا على خطّة الهجوم ، وانقضى الاجتماعُ ، وذهب كلّ واحدٍ ليقومَ بدوره المرسوم .

قبل الفجر بقليل كانت مجموعة من الشبان على الشاطىء تستعدُّ لركوب طوّافة صُنِعَتْ من جذوعِ أشجارِ النخيل ، وفوقها بعضُ أدوات الحَفْرِ وَخِرَقٌ مُبَلَّلَةٌ بالزيت ، وبعضُ السكاكين الكبيرة . وهناك ودّعَهُم شيخُ القرية وأوصاهم بالحَذَر وعدم التعجُّل ، وبالدقّةِ في تنفيذِ الخطّة ، ودعا لهم بالسلامةِ .

وصَلَت الطوافة إلى جوار سُفُنِ القراصنة بهدوء ، وهناك احتمى الشبان في ظلِّ إحدى السفن ، وبقوا صامتين ساكنين دون أية حركة ، في انتظارِ أنْ يبدأ القراصنةُ القصفَ فيبدأون هم في حَفْرِ ثُقوبٍ في جُدران المراكب



فلا يَسْمَعُ أصواتَ الحَفْرِ أحدٌ .

ما إنْ بدأ القصفُ حتى توزّعَ الشبان سباحةً فوق الطّوافَةِ واتجه إلى كلِّ مركبٍ اثنان منهم : أحدَهُم يحملُ أداةَ الحَفْرِ ، والآخرُ يحملُ خِرْقَةً مُبلّلَةً بالزيت ومِقداحاً لإشعالها ، وأسرعوا جميعا في العمل ، يعملون وقتَ القصفِ ويتوقفون إنْ توقّفَ ، حتى لا يشعرَ بهم القراصنة .

لم يكنِ العملَ سهلاً ، فَقَصْفُ المدافع يُحرِّكُ السفن والماءَ من حولها . وصَعُبَ على الشبان إحداثُ الثقوبِ بسرعةٍ ، ولكنّهم نجحوا أخيراً ، فأشعلوا الخِرَقَ المُبَلَّلَةَ بالزيت ، وأَلقَوْها في داخل السّفُنِ ، وانطلقوا سابحين مرةً أخرى إلى الشاطىء ، حيث كان في انتظارهم الفِتْيَةُ الصغارُ ، وقد رفَعوا عدداً من العِصِيّ المُدّببة المغروسة في الشاطىء تحتَ الماء فاتحينَ لهمُ ثَغْرَةً تسمحُ بوصولهم دون أن تؤذيَ تلك العصيّ أقدامهم .

فوجىء القراصنةُ فوق سطوح سفنهم بالنيران تشتعلُ في باطنها ، فسادهم الاضطراب والارتباك ، ولم يعودوا

قادرين على الاستمرار في قَصْفِ القرية ، وانفجرت إحدى السفن عندما وصلتِ النيرانُ إلى مخزنِ الذّخائر فيها .

وصاح زعيمهم ذو العين الواحدة آمراً السفنَ بالابتعادِ إلى عرضِ البحر. وهناك صعد فوق الصاري ، وتطلّع نحو القرية بمنظاره وصاح متعجّباً: « هذه القريةُ لا يمكنُ أنْ تُهْزَمَ ، كانت لهم في البداية قبةٌ ذهبيةٌ ، ثم جعلوا مكانها شمساً تُعمي الأبصارَ ، ثم حوّلوها إلى عمامة حمراءَ ضخمة ، واستطاعوا الوصولَ إلينا وإشعالَ النار في سُفُنِنَا ؛ هؤلاء لا يمكن أنْ يُهْزَموا . »

كان زعيمُ القراصنة قد شاهد البلح وقد صَبَغَتْهُ الدماءُ فأصبح لونه أحمرَ ، فظنَّهُ عمامةً حمراء ضخمةً فوق القرية ، تماماً كما ظنَّ في البداية أنَّ البلحَ الأصفرَ قبةٌ ذهبيةٌ .

ومنذ ذلك الوقت وأشجارُ النخيل تُثْمِرُ بلحاً أحمَر مع البلح الأصفر، تكريماً للشهداء الذين قَدَّمُوا حياتهم دفاعاً عن القرية وأهلها ونخيلها .

ومنذ ذلك التاريخِ أصبح اسمُ القرية « دير البلح » .



سلسلة الأفق الجديد

دار الفتى العربي للنشر والتوزيع

كورنيش المزرعة . بناية الترك . ص ب ٢٣٦/ ١٩٥ . بيروت ـ لبنان .

تضمُّ مجموعة من أجمل القصص الخيالية المُثيرة . بعد قراءة قصص هذه السلسلة نجد أننا قد أحببنا أبطالها رغم معرفتنا أنهم ليسوا أبطالاً من عالم الواقع .

صدر من السلسلة

★ **القنديل الصغير** قصة كتبها ورسمها غسان كنفاني

★ **حارسة النبع** قصة زين العابدين الحسيني

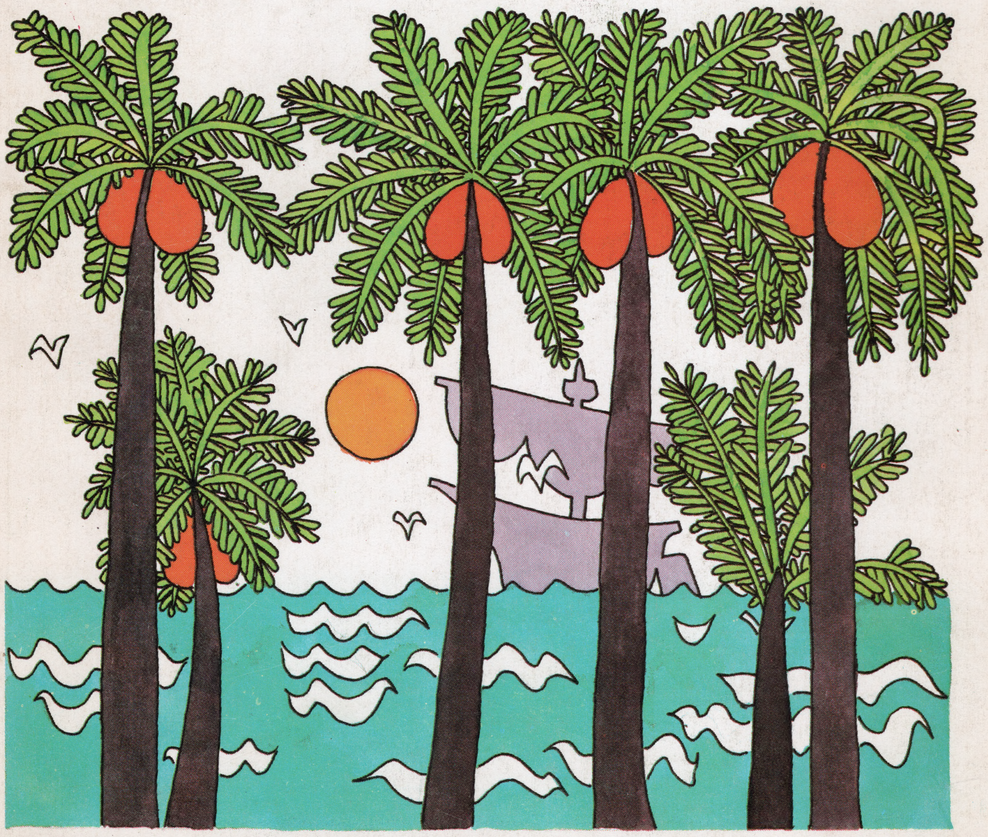
★ **السمكة الصغيرة السوداء** قصة الكاتب الايراني صمد بهرنجي

★ **البلح الاحمر** قصة الدكتور محجوب عمر

★ **نسيم الجناح** قصة كتبها بول أيلوار

★ **أوبرا القمر** للشاعر الفرنسي جاك بريفير

★ **ليمونة المحاياة** قصة كتبها فؤاد حداد



طباعة : مؤسسة دار الريحاني - هاتف ٨١٤٩٨٨ - ص.ب ٥٣٧٨/ ١٣